باب التربية
والخدمة الاجتماعية

التعليم على قمة جبل
للكاتب الاميركي لويس اداميك

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ
خطبة الاستاذ محمد المشاوي بك

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة
للسيدة انصاف منصور فهمي بك

مدرسة تجريبية حيث يتعلم الطلاب
كيف يعيشون وكيف يفكرون

التعليم على قمة جبل

في هذا المقال الذي يلخص واقع التجربة خطيرة في ميدان التربية وضعها الكاتب الاميركي الكبير لويس ادامبك في مجلة هاربرز الاميركية ونقلها عن ملخص الريدرز ديجست محمد سعد فوزي

ليست بلدة « بلاك ماونتين » — أو الجبل الاسود — إلاّ بلدة جبلية صغيرة يحيط بها الاخدود الازرق الكبير من جهة وسلاسل الجبال الشاهقة من الجهة الاخرى في ولاية كارولينا الشمالية بامبركا . وعلى منبسط من شمالها قامت « كلية الجبل الاسود » في بناء على طراز الفنادق الصيفية تملكه جمعية الشبان المسيحية ولا تزال تستعمله الى الآن في شهور الصيف كمسكر للكشافة الشبان

عندما اجتزت ردهة الكلية لم يكن في نيتي ان امكث فيها الاّ ما يقضي الزائر العادي — ربما ساعة او بعض ساعة . ولكني بقيت فيها شهرين ونصف شهر ادرس ما يمكن ان يضحى اهمّ المبتكرات التربية في تاريخ أميركا الحديث

إن بداءة كلية الجبل الاسود سنة ١٩٣٣ اتخذت شكلاً يصعب تصديقه . ولست ألمح في قولي هذا الى الدكتور جون رايس الذي كانت جامعة رولينس بفيلادلفيا قد طردته لانه كان مصدر قلق دائم فيها لما اتصفت به آراؤه في التربية والفلسفة من الجرأة والخروج على المألوف ، ولا الى ذلك الفريق من المدرسين الذين أيّدوا رايس وفقدوا بسببه وظائفهم . ولكنني لا ازال اذكر وأعجب بمنظر اولئك الشبان ، وكان عددهم خمسة وعشرين بين شاب وفتاة وهم لا يزالون في العشرين من العمر أعجب بمنظرهم وقد اقدموا على اختيارهم الى اولئك الاساتذة الثوار في مشروعهم الكبير لتأسيس كلية حين كان كلٌّ يجهل طريقة الابتداء في العمل او على أي اساس من الناحية المالية يقوم

ولقد نجح المشروع . فقد تمكن الطلبة باكتتاب عام من مساعدة اساتذتهم على جمع مبلغ يسير من المال يكفي لاستئجار المكان المذكور عدة شهور وشراء بعض اللوازم المدرسية وتخزين بعض الاطعمة لتكفيهم بضعة اشهر . واحضر كل طالب معهُ وكل مدرس كتبه الخصوصية وجمعوها في غرفة واحدة وسمّوها « مكتبة الكلية » واتفقوا على ان يقوموا بالاعمال اليدوية فيها بالتناوب . وعند انتهاء السنة الاولى كان كل مدرس قد سحب من « الخزينة » مبلغاً قدره

سبعة ريالات وسبعة وعشرين سنتاً في الشهر اي نحو جنيه ونصف وذلك لشراء الضروريات من ملابس وغيرها . واخذ عدد الطلبة والمدرسين يزداد تدريجاً ويمكن القول ان العدد قد يصل في بحر الثلاث السنوات القادمة الى مائة وعشرين طالباً وطالبة وثلاثين مدرساً ، وهو أقصى عدد يمكن أن تتسع له الكلية في مكانها الحالي

وليس للكلية مجلس امناء ولا مجلس ادارة ولا عميد ولا اي مدير يمكن ان يتدخل في عمل الاساتذة . ولما كان جون رايس هو الذي انشأ هذه الكلية فهو في منزلة المدير ولكن جميع القرارات الخطيرة تصدر من الجمعية التي تواها بعض المدرسين يختارهم زملاؤهم ومندوب او اكثر عن الطلبة . والكلية عبارة عن دولة صغيرة أساسها الديموقراطية والمساواة التامة فمندوبو الطلبة يقفون على قدم المساواة مع مندوبي هيئة التدريس . والمدرسون يجتمعون مع الطلبة للنظر في مسائل الكلية العامة ومشاكلها كلّ شهر مرة او عند ما تقتضي الحالة عقد هذا الاجتماع

ولقد القيت سياسة التدريس اول الامر على عاتق الدكتور رايس . وترمي طريقته الفلسفية في التعليم الى تخريج شبان ناضجين عقلاً « وعاطفة » وهو يقول في ذلك « إن مهمة المدارس هي تخريج طلبة لا يتجاوزون بمقدار ما تعلموا فقط ، ولكن بما في استطاعتهم أن يستفيدوا مما تعلموه . وكليتنا تخرج شباناً يعلمون أن الحياة ما هي الاّ سلسلة تحاون محكمة الحلقات »

وموطن جون رايس في جنوب كارولينا وهو ابن قسيس ويبلغ من العمر الآن نحو سبعة وأربعين عاماً ويتصف بكثير من النشاط الجسمي والعقلي . أما صراحتهُ وإخلاصهُ فلا يرقى اليهما الشك . وهو كثير التعصب لمهنته . ولقد استوقفت نظري شخصيته أولاً وتملكتني حماستهُ ولكني ارتبت في نظريته المتفائلة الى مشروعه الكبير . ثم استوثقت بعد الدرس والتمحيص من أن طريقتهُ التعليمية لا بد وأن تنال نجاحاً عظيماً في المستقبل القريب

والتعليم في تلك الكلية ينحصر ويتركز في شيء واحد — التجربة والاختبار . فالطالب يجد هناك بيئةً من العلوم المادية ومن بينها الموسيقى ودراسة الدراما والفنون الجميلة . وهو مضطر أن يعيش كوحدة في هيئة اجتماعية مشدود عراها . واذا استثنينا اثنين من الاساتذة يعيشان مع زوجتيهما وأولادهما في جناح خاص ، فان باقي الاساتذة يسكنون مع الطلبة في بناء واحد ويناموا في عنبر واحد ويقومون بتمريناتهم الصباحية معاً في صحن المدرسة الواسع . ويتناول الجميع الطعام في أوقاته المحددة في حجرة الطعام الكبيرة حيث ينضم اليهم الزميلان المتزوجان مع زوجتيهما والاطفال

وليس في الكلية موظفون . وإذا استثنينا الطباخ ومساعده وخادمين ورجلاً يهتم بالمدفأة

في شهور البرد القارص ، فان الأعمال اليدوية جميعها يقوم بها الطلبة والاساتذة معاً بغير فارق في أوقات الطعام يخدم الطلبة الاساتذة دوراً وهؤلاء يخدمون الطلبة دوراً آخر وهلم جرًّا . والطلبة الذين يدفعون أقل من النفقة المقرّرة للكلية أو الذين لا يدفعون شيئاً قط لا يطلب منهم القيام بأي عمل إضافي في خدمة الطلبة الآخرين . والحكمة في ذلك سامية وهي أن الطالب الذي يدفع اقل من غيره يشعر بغضاضة تجرح عزة نفسه اذا خدم طالباً آخر يعرف أنهُ يدفع أكثر منهُ ، ومن الناحية الاخرى فان الطالب الآخر قد يداخلهُ الزهو وتملأ نفسهُ النفخة الكاذبة

***

ويبلغ عدد طلبة المدرسة الآن سبعة وعشرين شابًّا واثنتين وعشرين فتاة تختلف أعمارهم من الثامنة عشرة الى الخامسة والعشرين . وليس في نظام الكلية ما يحتم قبول الطلبة في سن معينة . والكلية لا تهتم بدرجات الامتياز التي نالها الطالب في المدارس الثانوية بقدر ما تهمها شخصيتهُ ومدى استعداده لتفهم مبادىء الكلية وقبولها . أما شروط الانتظام فاثنان المقدرة على الاستفادة من المعيشة في وسط كوسط الكلية ثم الذكاء النسبي ، وهم يفضلون أن يكون الطالب شجاع الرأي سامي الاخلاق محبًّا للحق مدافعاً عنهُ . وكثيراً ما تقبل الكلية انتظام بعض المصابين بنقص في عقولهم في سلك الطلبة وقصدها من ذلك هو محاولة اصلاح امرهم من جهة ومن الجهة الاخرى اتاحة الفرصة للطلبة العاديين لتعلم كيفية المعيشة والاختلاط مع من هم اقل منهم نموًّا في العقل

ولما كان المطلوب من الطالب هو ان يتعلم كيف يعيش بنفسه وكيف يقرر ما يراه صالحاً لنفسه بنفسه فان الكلية لا تفرض على الطلبة مواد معينة ولكن على الطالب أن يتقدم الى امتحانين الاول عند انتهاء سنتين من دخوله الكلية والثاني بعد أربع سنوات . أما المواد التي يختارها الطالب والطريقة التي يتبعها في اتمام ذلك فذلك راجع اليه أولاً وآخراً . وفي امكانهِ أن يدرس بنفسه وتحت ارشاد مدرس أو يحضر الحصص اليومية المخصصة لباقي الطلبة . ولكن المتفق عليهِ أن يواظب الطالب على حضور الحصص الدراسية في بدأ دخوله المدرسة . أما بعد ذلك فالعمل كلهُ يقع على عاتقهِ الشخصي

وطالب القسم الاعدادي في الكلية يجد الفرصة مناحة لتجربة عدة مواد حتى يستوثق من المادة التي يميل اليها اكثر من غيرها . والانتقال من القسم الاعدادي الى القسم العالي يتوقف على الطالب فهو الذي يقرر متى يكون ذلك . وليس معنى ذلك هو ترك الطالب وحيلهُ على غاربهِ

لان الاساتذة مستعدون دائماً لإسداء النصح الى الراغب فيه . اما الطالب الذي يعتقد انهُ أتمَّ دروسه العالية ويريد التخرج فليس عليهِ الاَّ ان يعلن الكلية بذلك في صورة الناس باعطائه الاجازة ويكون ذلك مشفوعاً بملخص وافٍ لما يعرف من المواد التي درسها . واذا رأت الكلية بعد استشارة الاساتذة ان الطالب يستحق اجازته فانها تدعو بعض المبرزين في هذه المواد من الخارج لامتحانه

أما في أيام العطلة الصيفية فيذهب الطلبة الى منازلهم وفي آذانهم يدوي صوت أساتذتهم وهم يحثونهم على زيارة المنشآت الصناعية المختلفة والامتزاج بالهيئات السياسية والاجتماعية ويطلب منهم عند رجوعهم كتابة التقارير المفصلة عما شاهدوا وتلمسوا

ولعلَّ أغرب ما شاهدتهُ في الكلية هو تعاون الاساتذة والطلبة وامحاء الفوارق بينهم امحاء تامًّا . فلقد شاهدت الاساتذة يشتركون مع الطلبة اشتراكاً فعليًّا في جميع الاعمال التي تتطلبها الحياة اليومية في الكلية من غسل الصحون ومسح الارض الى قطع الحشب واصلاح الطرق وتمهيد ملعب « التنس » وغير ذلك

ويتمتع طالب كلية « الحيل الاسود » بحرية تخا يتمتع بها طالب آخر فله الحق كل الحق في ان ينحي على أعمال مدرسيه بالنقد كما ينقد هؤلاء أعماله . ولهُ مطلق الحرية في ان يقول ما يشاء عن أي شيء في أي وقت شاء مع تحمل العواقب بالطبع . ويحضر بعض الاساتذة — ومن بينهم جون رايس نفسه — بعض الفصول كطلبة ويجلسون مع الطلبة ولا فارق بينهم مطلقاً

ومعظم دراسات الكلية تتم خارج الفصول . وكثيراً ما رأيت الطلبة يجتمعون فرقاً فرقاً في صحن المدرسة ورايس ينتقل بينهم فهو هنا يشرح مسألة صعب فهمها وهناك تراهُ جالساً كطالب مؤدب عادي ثم هو هنالك يناقش الطلبة في مبادىء الكلية وأغراضها . او في مشكلة اجتماعية او سياسية . وأحياناً ينضم جميع الطلبة والاساتذة لمناقشة احدى المسائل العامة ويطول النقاش اثناء تناول الغداء والعشاء وكثيراً ما تمتد المناقشة الى وقت متأخر من الليل فيتفق الجميع على ارجائها الى الغد حيث يستعد كل فريق بحججه وادلته الى ان يصلوا الى القرار الاخير

وقد تكون اهم اغراض الكلية هي اعداد الطلبة لمواجهة الحياة الصحيحة بعزم وشجاعة وتخريجهم خبيرين بالطبيعة البشرية رجالاً ونساء يعتمدون على انفسهم ولا يضعون في حياتهم في اخطاء في زيجاتهم او علاقاتهم الشخصية بغيرهم او ما اشبه ذلك او تكون اخطاؤهم في ذلك أقل من اخطاء غيرهم . وبيئة الكلية تظهر نفسية الطالب تماماً فيراهُ الجميع على حقيقته كما

ترى هو قرارة نفسه في وضوح وجلاء وربما لم يكن يعرف ذلك من قبل . والطالب الذي يريد ان يخدع نفسه يجد الفرصة مؤاتية لهُ فليس هناك قوانين ولا لوائح . ولكنهُ لا يلبث طويلاً حتى يرى الفرق بين سلوكه وسلوك اخوانه الطلبة فان النقد الذي تقابل به اعماله تجعله يخجل من نفسه ، وهو نقد خال دائماً من الغرض او اللذع الاليم . والرغبة في مساعدة الغير متوافرة ودائمة وقوية ونبيلة . والطلبة القدماء يحاولون جهدهم تقويم اخلاق الزميل الجديد واصلاح اعماله

***

ومن المواد الاساسية التي يدرسها الطلبة في الكلية دراسة الدراما والروايات التمثيلية وهي ذات فائدة عظيمة كما سيجيء بعد . ويقوم الطلبة مع الاساتذة بتأليف خمس روايات تمثيلية كل سنة وتمثيلها واخراجها . وفي ذلك يقول جون رايس :

« فايتا — إذا أردتَ مثلاً — أن تظهر شاباً تملأ نفسه غريزة الطغيان في دور الطاغية حيث يرى عواقب طغيانه واضحة جلية . ونحن نخلق للفظ دوراً يناسبهُ ولكني عملاً يؤديه . ومن الناحية الاخرى فنحن نعين للطلبة أدواراً تخالف طبيعتهم كل المخالفة فالطالب الغني يقوم بدور رجل قد هدّهُ الفقر وحطمهُ . وانضع الفتاة الفقيرة في مقام امرأة غنية نفسة . أما دور الشاب الخائر المتشكك فيوحي اليهِ معنى الكفاح في الحياة ولذة النصر ويريه كيف يموت المرء راضياً دفاعاً عن مبدإ إعتنقهُ . . »

وموارد الكلية محدودة وهي لا تكاد تكفي لإبهاء العام الدراسي . وربما يأمل الجميع ان يهبط عليهم ذات يوم ملاكٌ من السماء ويريهم بغتة الف جنيه فهم في اشد الحاجة الى مكتبة عصرية كاملة ومعدات كثيرة . ولكنهم في الحقيقة يخشون الغنى الفاجيء ويفضلون حالتهم الحاضرة مع ما فيها من عنت . ولا يقبل أحد منهم ان يتقدم لتمويلهم غنيٌّ ما اذا عنّ لهُ املاء شروط خاصة على إدارة الكلية

قد تكون عظمة الكلية في الوقت الحالي أنها محاولة لا تزال في المهد ولكن الفكرة فيها على كثير من السمو . ويفكر كثيرون من خريجي الكلية في انشاء فروع اخرى على غرارها في أنحاء الولايات المتحدة . والسائد إنهُ في نهاية العام الدراسي الحالي يكون لدى الكلية هيئة تدريس تصلح مع من ينضم اليهم من الطلبة القدماء كنواة لانشاء فرع جديد . وأنا اعتقد اعتقاداً جازماً ان عشرين كلية من ذلك الطراز تضم كل منها مئة وثلاثين طالباً وثلاثين مدرساً في امكانهم ان يقلبوا طرائق التعليم الحالية رأساً على عقب . وأعتقد ان الف طالب يتخرجون منها يمتد أثرهم الى جميع المرافق في حياة العالم الجديد